ورحل عُقاب العربية !!

بقية المتقدمين من السلف العظيم ، جبابرة اللغة والفكر ، والرأى ، والغيرة النبيلة ، لاتتكرر له نظائر فى الجيل ، ننعاه اليوم إلى هذه الأمة الصامدة فى زعازع الهوية والبقاء ، إلى عالم الكلمة الحرة الجريئة ، عالم الأريحية والفداء ، بقية مما ترك صادق الرافعى والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مسحة واحدة .

إنه محمود محمد شاكر (أبوفهر) وكفي !!

وحسب هذه الأمة أن تذكر اسمه مجردًا من أى لقب أو منصب ، فهو أكبر منهما فتذكر التضحية فى سبيل الرأى والإيمان به ، مجردة من المآرب والمنفعة،وهل ثمة أكثر ممن يؤمن برأى فيدع الجامعة - وهى غاية الأمنيات آنذاك - ليذود عن هذا الرأى - عملاً لاقولاً فقط - طوال حياته ؟

حياة طويلة عريضة ، ولكنها أعظم أثرًا أن تحسب بالأيام والسنين ؛ حيث تمتد هذه الحياة فى أعراق هذه الأمة ، وفى صميم وجودها ، ولعلها تفطن الآن أكثر حين ترى مانبهها إليه أبوفهر بمقرعته الغليظة منذ العقد الثالث من هذا القرن ، وتراه رأى العين الآن !!

عرفته من أكثر من ربع قرن شخصًا ، وعرفته قبل هذا التاريخ قارئًا له مقالاته فى الرسالة تهاجم لويس عوض ، فلما رأيته صدق السماع الرؤية ، رجل فى أواخر العقد السادس ، ولكنه يتفجر حيوية وشبابًا ، أسبقنا إلى كتاب ، يستوثق من خبر أو شاهد ، فيصدق الكتاب مايروى ولكنها الدقة الشاكرية ، التى لم يتخل عنها وشواغل المرض تنتهبه .

وربما خطر لبعض الناس أن الرجل حبيس داره وكتبه وهو وهم ، لأن داره جامعة حج إليها مريدوه وهم كُثّر ، فوحدته مأنوسة ، وهو أيضًا يسع قلبه وعقله العالم كله ، يعشق الفن ويطرب له ، ولقد سعدت بصحبته فى إسبانيا منذ

عشرين سنة ، وتجولنا فى الأندلس الإسلامية حتى فى القرى ، وكنا نذهب كل مساء لمشاهدة الغناء والرقص الشعبى (الفلامنكو) وهذا الرجل الوقور يستميله الطرب ، فيهتز اهتزاز الكريم ، ويستعيد ، ونعود معًا فى الربع الأخير من الليل، فنقرأ صفحات من الحماسة كنت أناوشه بشقاوة الشباب ، فيفسح من صدره مرات ويضيق بمجادلتى مرة ، ويسمعنى ما أحب من لذعاته فلا أسكت .

فى عيد ميلاده التسعين (بالحساب الهجرى) أنشدت قصيدة فى المناسبة ، كان الداء قد تمكن منه ، ولم يتمكن من عقله المتوهج ، ونظرات العُقاب النافذة ، وإن عاق الريش أن ينهض ، كانت - وما أقسى كانت - صورة العُقاب الذى يهرم ولايستكين ، هى الصورة التى رأيتها منذ عرفته ، لم تغيرها الأيام ، وهى صورة العقاب الذى يحرس العربية بوجوده ، لأن الأمان الذى يبثه جدير أن يغنم ثقة النفس وأملها فى المستقبل . لقد كنا نذهب إليه والإحباط آخذ بالأنفاس ، فإذا بنا نعود وعقولنا ومشاعرنا تطاول السماء .

شيخى العظيم :

ستظل غيرتك على الأمة ولسانها تغنم معارك ، وتثير معارك ؛ لأنها غيرة الضمير الحى ، والعقل الحر ، لايفارقك الولاء والعداء ، والوفاء والجفاء ، وسيفيك الغد حقك ، إن قصر يومك وأمسك ، رحمة الله عليك من راحل ، لايرحل عنا حبه وذكراه ، ورحمة الله لنا من آسفين ، ذاكرين ومحزونين .

محمود الطناحى إنسانًا

وهل يستطيع مثل محمود الطناحى إلا أن يكون إنسانًا ؟ لقد استغرقته الإنسانية، فلم يفلت من نياطها على المستوى الشخصى والعلمى ، وكأين من علماء أو أساتذة يدابر علمهم إنسانيتهم ، فيكونون نكالاً على أنفسهم وعلى العلم.

وإذا حددنا العلم هنا بالدراسات الإنسانية ، ومنها علوم العربية والإسلام ، فإن الطناحى فى قنة باذخة من الإنسانية ومن هذا العلم أيضًا ، ومع أن المفروض أو المتوقع أن تكسو هذه الدراسة صاحبها شية خاصة من الإنسانية ، فإن القاعدة تتخلف أحيانًا كثيرة على مارأيناه من مشاهد الحياة ووقائع العشرة ، بيد أن محمود هنا تدسست إليه هذه المعارف ، فشاطرت فطرته التى ذرأه الله عليها .

ولد الطناحى فى قرية «كفر طبلوها» مركز تلا من أعمال المنوفية ، وثمة مثل يتداوله أهل هذه المنطقة عامة يقول : «إذا ضاع فى الدنيا حفظ القرآن فلا يضيع فى كفر طبلوها وزُرقان» ، وبينهما وبين قريتنا «طوخ دلكة» قِدَى رمح ، وليس لقريتنا مثل هذه الشهرة فى هذه الخصلة الكريمة ، ويذكر المرء طائفة من علماء الأزهر خاصة من هاتين القريتين .

ولمن حفظ القرآن كالطناحى ، ودرس علوم العربية والإسلام سمت خاص ؛ إذا أثرت فيهم هذه الدراسة وقد أثرت بالفعل فى فقيدنا العزيز ، ليس على المستوى العلمى ، وهو فى ذؤابته ، بل فى تصرفاته ، وخصاله الشريفة من النبل والأريحية وسعة الأفق ، وبعض أهل الأزهر أو التربية الدينية لهم سمة خاصة ، كالطائفة الاجتماعية بين طوائف المجتمع ، وفى كثير منهم عزلة وربما غربة عمن يعاشرهم من أهل التعليم المدنى ، ربما تدفعهم إلى شئ من الانغلاق ، حاشا من كان على شاكلة محمود ؛ إذ أتيح له أن يتفتح منذ الصباح الباكر على القاهرة ، وأن يندمج فى مجتمع دار العلوم ، وهو وسط بين تعليم الأزهر ، والتعليم

المدنى، وهكذا كانت ثقافة الطناحى ، والحقيقة أن التراث الحقيقى كما فقهه صاحبنا لايدع للانغلاق سبيلاً ؛ لأنه يقرأ هذا التراث ، وفيه إحاطة واسعة بالشمائل الإنسانية السوية التى لاتغفل ولاتغلق نوافذ الحياة ، ويمكن أن يكون ما أطلق عليه الفقهاء قديمًا «الإحماض» وسيلة إلى هذه البابة الرحبة ، إذ لم يتحنث تحنث الفقهاء من رواية الشعر وتصويره لكل الجوانب الإنسانية حتى الجانب الماجن منها ، وقد راض الفقهاء هذه البابة وأبدعوا فيها شعرًا نفيسًا .

أما القشور التى تدرس من هذا التراث . . فهى مدعاة إلى هذا التحرج الذى نلمسه فى المسطحين من المنتسبين إلى هذا التراث ، وماكان فيه من عيب ، إلا فى أنفسهم .

كانت إحاطة محمود بالتراث الحقيقى ، حيث العربية كتاب واحد ، إحاطة مذهلة ، لاتوازيها غير إنسانيته الرحبة والمذهلة فى الوقت ذاته ، لم تصبه آفات المهنة بما تصيب نظراءه ، وإن كان قليل النظير ، من أدواء الحسد والتنافر ، وتدبير الدسائس ؛ إذ كان الرجل بعيدًا عن هذا كله ، غير أنه ليس بعد الغفلة ، بل بعد الفطنة واللقانة التى تثير فى نفسه الأسى والإشفاق ، وربما بسمة السخرية ممن يتذاكون عليه وعلى نظرائه ، تجرد الرجل من آفات المهنة ، حيث تجاوزها برحابة أفقه ، حين تحتجن رصفاءه قيودها وآصارها الثقيلة كان يشعر بالزهو - وهو المتواضع - أو الباخع نفسه أحيانًا - أن تجرد للعلم والنظر والمذاكرة كما كان ينعتها.

عرفته منذ سنوات طويلة خلت ، فما جربت عليه كذبًا قط ، وإن كان الكذب الأبيض ، رجل شديد الصدق مع نفسه ومع الناس ، بل ومع الأشياء ، شديد الإلف ، ولعل ألفته مع المخطوط منذ بداياته الأولى ، جره دائمًا إلى ماتعارف عليه الناس «بالأصول» ؛ فالأصل عنده بالمعنى الاجتماعى والعلمى له مكانة ملحوظة وخطيرة فى تعامله مع الناس والأشياء ، وصدقه - فطرة - صاحبت صدقه مع المخطوط وتحقيقه ، فالتقى صدقان موهوب ومكسوب ، وهو باحث دائمًا عن اللباب فى مسلكه الحياتى والعلمى ، فلاتخدعه البهرجة فى المشاعر ولا فى الكتب ولا فى مؤلفيها ، يحتشد للقائك احتشاده للكلمة المقروءة والمسموعة ،

وله بصر يعرف الخبء وإن كان يخيل إليك أنه لاينظر ، لأن البداهة عنده قويت، فتعمل عملها كأنها لاتعمل .

ومن يوم أن التقينا لم نفترق مشاعر وفكرًا ، وإن كانت أسفاره وأسفارى حجبت لقاءنا أشباحًا وظلت أفكارنا ومشاعرنا فى عناق أبدى ، وكأنها الآصرة السماوية التى توشج بيننا ، حتى وإن اختلفنا قليلاً .

والطناحى من ذلك النفر النادر ، الذى يعض عليه صديقه بالنواجذ ، إذ كان هو مع أصدقائه كذلك ، وهو منى بمنزلة الأخ الأكبر ، لكننا نشعر أن مودتنا محت أقياد السن ، وزاد من هذه الآصرة السماوية ولاؤنا لعقاب العربية أبوفهر محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه - وما يمثله من غيرة على اللسان العربى، وعلى كل تراث هذه الأمة ، وكنا نحس أن كلينا يكتب للآخر ، أو يفكر فيه حين الكتابة ، ونختار لذلك بعض الغريب ، أو هو يختارنا لأننا نحس أننا نكتب كتابة مخالفة ، ولذلك حين ينشر أحدنا شيئًا ، نتهافت معلقين ، ويطرب كل منا حين تقع القُذَّة على القذة ، وندرك فى التو أن الرسالة وصلت ، وأن العربية تختال حين تجد من ينفث فى هوامدها حرارة الحياة ، وكان محمود يزيد عنى فى انهمال العبرة ؛ حين يستمع إلى شعرى وإن كان الموضوع غير حزين ، لأنه يتطرب إلى صورة دقيقة ، أو جملة محكمة ، وما استطاع أن ينوب عنى فى إنشاد قصيدتى عن شيخنا أبوفهر فى تأبين جامعة الأزهر له ، حين حالت حوائل أن أشارك بشخصى ، وليس فيما أرويه شبهة بأو ، إذ كانت عبرته قبل كل شئ على ضياع «البيان» فى جيلنا ، وكيف نطمس روعة العربية بدعاوى النزوات الطائشة ، ولمحمود قُدرة فذة على تمييز الكلام والبصر به ، ومن ثم كان حزنه وأساه .

ومحمود من ذلك النفر القليل الذى نحب العربية فى مقاله وكتابه ، لأنه ينطق نطقًا مكتملاً ، ويكتب كتابته هو ، وإن كان فيها أثارة من كلام قديم ، لأن هذه الأثارة ملكنا نحن ، وننفق من رصيدها ، ولانطمس هويتنا ، ومن ذلك النفر شاكروالجارم والعقاد والمازنى فى كتاباتهما الباكرة . ولم يكن منه أبدًا مصطفى صادق الرافعى ، وهنا كنا نختلف اختلاف الرأى لنتفق فى شعور ، وكنت أرى الرافعى فى غير موضعه الذى يحله فيه شاكر ، والطناحى .

وكان فى محمود عيب ظاهر وإن حاول ستره ، وهو فرط ثقته بالناس ، وحمله لهم على محمل الخير دائمًا ، وربما أشاركه فى هذا العيب ، وإن كنت أخادع نفسى فأنفيه عنى «ولايخدع المرء سوى نفسه» ، وحين كان يجد أن ثقته فى غير موضعها ، يأسى قليلاً ، لئلا يفقد هذه الثقة ، وأن الأمر عنده على بابه ، وأن انعدام الثقة لديه أنكى من عواقب الثقة المخدوعة ، وصبر محمود وصابر على كثير من هذه المواقف ، وترك حقه الشخصى يتحيفه جور رصفائه ، وليس لهم نقاء سريرته ، بل فيهم لؤم النحائز ، وارتكاسة الخيم الذميم ، وركن إلى «بيانه»المشرق ، يضئ له وللناس ، وأبى بأوه أن يسوقه سوقًا إلى مالايود ، وكان فى ذرعه أن يرد الصاع صاعين كما يقولون ، لكن كان حسبه أن يقول «لن ندخلها أبدًا مادامو فيها» ، وهم ليسوا فيها ولن يكونوا أبدًا ، ومثل محمود منها فى الصميم وإن كان بعيدًا ، إنهم يرونه بعيدًا ، ونراه قريبًا ، وإن موقفه وموقف قرنائه معه لتصحيح لمقاييس أخلت بها تقاليد النذالة ، وهى غير عسية بالمناجزة ، يشيع فيها الصغار ، ومن هنا كان بأو محمود وصرامته .

ولقد اجتمعت للطناحى خليقتان تبدوان فى الظاهر متباينتين : خليقة الجد الصراح ، وخليقة المرح الصراح كذلك ، واحتفظ صاحبهما بمواطنهما إلا حين تغلبه القافية والقافية تحكم ، وقد مكنت الخليقتان له قبولاً لدى الناس ، فلا يكرهه إلا لئيم الخيم نزر المحامد : الفئة الباغية ، التى لاترى الضوء ولايروق لها أن تراه ، وكان هو الرابح على المدى البعيد ، وكانوا هم الأخسرين أعمالاً على المدى القريب والبعيد ، حين ألصقوا به تهمًا لاهو منها ، ولاهى منه ، وكان مبلغ قولهم إنه سلفى يعنون بها ولاءه للجماعات الإسلامية ، التهمة الشائعة هذه الأيام، والحق أن الرجل ومن والاه ، ليس لهم ولاء لهذه الجماعات ، ولاحتى الشيخ العظيم أبوفهر ، بل إنهم أقرب إلى مناجزة هذه الجماعات ، أكثر من المتاجرين بمناجزتها ؛ لأننا نناجزها آيبين إلى المنطق والفكرة السوية ، على حين تكون النفعية رائد الفريق المتاجر .

ومرح الطناحى هو المرح الموقع ، الذى يفطن إلى منافذ الفكاهة ، حين تفضح خلل القياس ، دون أن يشوبها مايشوب الفكهين من خفة ونزق ، لايعرفان

مـواطن الجـد والقـداسـة ، ولعل فطرة ابن البـلد هى التى تنضح فى أفـاكـيـه الطناحى، فترقـرق أنداء العزاء فى براثن الهجير الذى يشـوى الوجوه والكبود ، وكانت تسـعده قريحـته فى إطلاق النكتـة النافذة ، وكانت بديهـته معـوانًا لهذه القريـحة ، بعيـدًا عن الاشتـقاقـات اللغوية ، والشـقاشق اللفظيـة لأنها قـريبة وسطحية ، وإن كانت تجئ أحيانًا نافذة نفاذ الأفكوهة العميقة ، ولانريد أن نفزع إلى سرد طائفـة من نوادره ، التى تتأبى على الحـصر بغيـر عسر ، يقلد أحـيانًا صوتًا وحـركة وهيئـة بعض المتنطعين من المشـايخ أصحاب اللازمـة فى الحديث والهيئة ، ويزيد محـمود المسألة «حبتين» لزوم القافية ، فـيخيل إليك أنك تسمع وترى هذه الشخصية ، ولولا أنك فى محضـر محمود لفركت عينيك وأذنيك ، حسبـانًا أنك فى غير حضرته ، لتـمام المطابقة ، ونحن نعتقـد أن هذا التقليد - بجانب الفكاهة النـافذة فيه - فـهم دقيق لهذه الشـخصيـة أو تيك ، وأن المسألة خرجت من الفكاهة السريعة إلى الفطنة والتحليل العميق وأن النقد يستوفى حظه حين تستوفى الأفكوهة حظها أيضًا .

وتغلبه مصطلحات المهنة ، فيورد طائفة من نوادرها المحفوظة ، يذكر أن طلاب معهد القراءات خـرجوا يهتفون للنحاس باشا ، فتغلبهم طبـيعة «الإمالة» فإذا بهم يطبقونها فى مثل هذه المناسبة ، وهل هناك مناسبة أعظم لإبلاغ إمالتهم المميزة مثل هذه ؟ يقولون : قراء ورش يؤيدون «أبا درش» وهى كنيـة لمن يسمى «مصطفى» ، وتحكم القافـية فتزيد النبـرة حين يهتفـون : «يحيى النحيس بيشـا» يريدون يحيى النحاس باشـا ، وتنال قافيـته صحابه الأدنين ، يقف أبوهـمام ينشد قصـيدته فى ذكرى التـوحيدى ، فيـقدمها قـائلاً : «من أبو همام إلى أبوحيان» فـما يكون من الطناحى إلا أن يقول : من أبو همام إلى أبو حيان ياقلبى لاتحزن» .

وطبيـعة مـحمـود المتسـامحـة الودود فى غيـر الحق والعلم هى التى تملى هذه المواقف الآن ونظائرها كثير ، وهى التى تقطر طلا علـى الأكباد الوارية ، فتأبى أن تكون المناسبـة حزنًا محـضًا ، أو لعلها طـريقة طناحيـة فى الشعور بالحـزن حين يتسـرب إليه وشل مـن المرح ، ولعلنا نردد ما ارتجله العـقاد يوم نعى حـافظ بك إبراهيم :

«أبكـاء وحـافظ فـى مكـان تـلك إحـدى طـوارق الحـدثـان
كنت أنسًا فكيـف أصبحـت ياحـا فـظ تدمـى لذكـرك العينـان»

ووضع «محمود» موضع «حافظ» لا يأباه مهيع العروض ولامهيع محمود ، مع قليل من الزحاف المحمود . وصـفحة محمود الطناحى صفحـة باقية ، كلما قلب المرء صفحة من صـفحات الطروس أو صفحات النفـوس ، وإننا لرابحون لأنفسنا على سنة الوفاء ، حين نفى لك .

وإنا إلى الله راجعون لقد غـال الردى سيرة من السير ، وإنها لسـيرة إنسانية ، تملى نفسها بميزانها المحقق ، لابميزان «اذكروا محاسن موتاكم» لايقول فيها الصديق ما يأباه المحقق ، أما أبو همام فيردد ماكنت تردد .

«مافى الصحاب أخو وجد نطارحه حديث نجد ولاصـب نجـاريه»

«سلام على إبراهيم»

بقية المتقدمين من جماعة أبوللو ، ووارث المدرسة المصرية من شعراء الرقة العاطفية ، الذين تحدروا من أصلاب البهاء زهير ، وإسماعيل صبرى ، ويمتد نسبهم إلى العباس بن الأحنف وإخوان هذا الطراز . .

إنه الشاعر إبراهيم عيسى ، الذى رحل أخيرًا ، وفى نفوس محبيه أسف لاذع، ومحبى شعره وطريقته حزن على صوت أصيل يتوارى والساحة غاصة بأوشاب الكلام المهزول ، والسوق نافقة مظهرًا ، شديدة الكساد مخبرًا .

جاء الشاعر إلى الدنيا سنة ١٩٢٧ ، وهى فترة الإرهاصات الشعرية ، شهدت فورة هائلة لدواوين الشعراء من جماعة أبوللو أبو شادى ، وصالح جودت ، وناجى وأقرانهم ، وكان لايزال يتردد صدى «الديوان فى الأدب والنقد» للعقاد والمازنى ، ومبايعة شوقى بإمارة الشعر ، ورحيل إسماعيل صبرى ١٩٢٣ ، والحياة السياسية والاجتماعية آخذة بالخناق ، عاش الشاعر فى تلك البيئة ، فتركت أخاديدها فى قسمات نفسه ، وتخرج فى كلية التجارة كشأن قرينه صالح جودت فلم تلهه التجارة عن تجارة الشعر ، ولبى إبراهيم عيسى عرائس الإلهام ، قبل أن يلبى عرائس الأرقام ، إذا كان لها عرائس ، محتشداً لما نذر نفسه له حتى آخر لحظات حياته .

ولم يكن من الممكن للشاعر أن يخرج عن إهابه فغدا صوتًا مغردًا فى حديقة أبوللو ، ولانقول فى غابها ، حيث لاصبر له ولا لهم على مطاولة لواعج الغابة ووحشتها ، وحسبه وحسبهم أن يغنى فى حديقة مأنوسة آهلة يطرب للتنسيق والرقة ، وتتعلق خواطره بجمال فاتنة الحديقة ، يأنس إليها وتأنس إليه ، ويجد فى لواذها مايهدهد مشاعر شاعر «أبوللونى» .

وإبراهيم عيسى من الشعراء المطبوعين على التأنق مظهراً وشعراً ، وربما يخيل [illegible] ثه أنه يستفرغ جهده فى الأناقة التى تشغله عن العمق ، ولكنه لايلبث

obeikandi.com

أن يدرك أن الأناقة تتعمق ، حيث تشرئب إلى سبحات الروح فى معراجها الأسمى ، وحين يطل على هوة أحزانه ، أو يتطلع إلى شرفات أفراحه فيعرف أن العمق الأنيق فى محله المحتوم .

إبراهيم عيسى مغبون ، وربما كان مسئولاً عن بعض هذا ، حيث حجب شعره فلم يجمعه فى دواوين ، وإن كان قد التفت أخيراً فجمع بعضه فى ثلاثة دواوين، وبقى عنده رصيد هائل يحتاج إلى جمعه ، خدمة للشعر وتاريخ الأدب ، لكنه غير مسئول عن بعض آخر ، حيث شهدت حياته حركة الشعر الحر ، فاستعصم بيقينه فى الشكل الموزون المقفى ، وأبدع فيه غير عابئ بصرخات التفعيلة ، ومايسمى بقصيدة النثر .

وينبغى ألايغيب عن البال أن آخرين زلزلتهم هذه الحركة وتوابعها ، وخشوا الاتهام بالتخلف ، فتابعوها ، خاصفين على مايكتبون من ورق التفعيلة أو النثر مايوارى سوأة الوزن !! وغدا أكثرهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء !!

كما ينبغى أن ندرك أن القصيدة الموزونة المقفاة المعاصرة ليست قصيدة واحدة ، وهؤلاء النظامون أخطر على «الشعر» من التفعيلة ، والنثر ، ولم يكن إبراهيم عيسى من هؤلاء .

«سلام على إبراهيم» حين نعود إلى تراثه الشعرى ، فيحيى الثقة بالكلام الموزون المقفى ، وحين نستحضر شخصه - وهو حاضر - فنعود بذخيرة من الإنسانية العذبة ، والرقة التى تنعقد جمالاً ومودة .

د. محمد عيد وداعاً !!

بقيـة المتقدمـين من شيوخ اللغـة والنحو والأدب ، يتحـدر من تلك الأصلاب الكريمة ، التى وقفت على ذخائر تراثها فقهًا ودُعيًا ، حتى غدا هذا التراث ساريًا فى خلاياه دون شطط ودون ذوبان ، بل إنه فقه هـذا المذخور الكريم ، مع حفاظه على نفحة شخصية ، سرت فى كل ماكتبه من كتب ومقالات .

كـان المأمول أن يُنْسَـأَ لَهُ فى أجله ، لكنه غُـوضِرَ دون أن يـفيـد منه أبناء هذا الجيل، أكبر إفادة ، وإن كان قد أخذ نصيبه منه أكثر من ثلاثين سنة يدرّس ويوجه طلابه فى الدراسات العليا ، ويؤلـف وكأنه كان يحس أن الرحلة - وإن طالت - قصيرة، فملأ حياته علمًا باقيًا لهذا الجيل الذى يضن بما خلفه له الأستاذ .

وكأين من علماء راسخين لايسعدهم خلق كريم ، وسلوك قويم ، لكن الراحل الكريم كان نمطًا فريدًا فى سلوكه المهذب الراقى ، طيـبة قلب ، وسماحة نفس ، وكان باطنه خـيرًا من ظاهره ، وكأنه كـان يخشى أن يعلن دائمًـا عن هذا الباطن الوثير ، فيتهم بالضعف واللين ، غير أنه كان يخفى وراء هذا الظاهر الخشن أحيانًا - فى الحق - مـهادًا من العطف والودادة ، يبـذلهـما لمن يسـتحق أن يعـرف هذا الباطن ، وأن يقدره حق قدره ، كان يظلمه ظـاهره ، وماكنت أحسبها تلك الخلة إلا مرارة الجد الصارم والزهادة فيما سـوى العلم والتوحد معه ، والرجل لايتفلت من نياطهما ـ حتى مع نفسه ـ وكانت تلك المرارة والجد يذوقها قبل غيره ، وحسبه هذا صدقًا مع النفس .

ولد محمـد عيد فى كفر حـجازى من أعمال المنوفيـة ١٩٣٢وتلقى دروسه بعد حفظه القرآن الكريم فى الأزهر ، والتحق بدار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٩٥٨، وحتى رحيـله كان لايكف عن طلب المعرفة والدرس ، ينفق الليـالى ذوات العدد فى المفاتشة والمراجـعة ، وهو وإن تخصص فى اللغة والنحو ، فقـد توسل إليهما بالأدب ذوقًـا ودرسًا كـان حـجة فـى الشعـر حـفظًا وتأويلاً ، أو رواية ودراية ،

ونحسب أنه لايوجد نحوى على شئ إلا وهو ضـارب بسهم فى الشعر والأدب ، تشهـد بذلك كتبه فى النحـو ، والدرس اللغوى الحديث ، وقد درس ابـن مضاء القرطبى لكنه لم يسر معه إلى نهاية الشوط ، بل استطاع محمد عيد أن يوازن بين الشطط والجمود ، فأحسن الاعتدال والاتزان ، وكان كتابه «النحو المصفى» كاسمه نمطًا من التأليف فى النحـو المتأدب ، مفيـدًا من شيوخ النحو فى العـصر الحديث كالشـاعر اللغوى على بك الجارم ، وعـباس حسن ، تلك الإفـادة التى تحسن أن تهتدى وتقتدى ، وسوف يظل كتابه مع الجارم وعباس حسن معلمًا بارزًا .

أما الصـديق محمد عـيد فكان الود منخولاً ، والنقـاء موصولاً ، عرفـته أول عهدى بدار العلوم ، فكأنى أعرفه من آن بعيـد ، خلطنى بنفسه وخلطته بنفسى ، وشقيت بمن يجـافيه ، وكنت أرى صفاءه وشموخ همـته حيث لايرون ، والرجل بطيبته لم يتصور أن فى الدنيا لؤمًا ، أو كان يتصوره ويود أن يغيره ، ولايتغير هو حيث يكون اللؤم شرفًا ، وعانى كما يعانى الشرفاء فى كل الأزمنة الكابية ، ودفع الضريبة من نفسه ، راضيًا مرضيًا .

أيها الصـديق الحبيب أبا خـالد : سلام عليك ، لقد عـانيت ، فلتهنأ الآن مع الأصفياء الأوداء ، وسلام علينا بعدك حيث يعز العزاء !!

«جرانخا الشنتمرى» المستشرق الإسبانى الراحل

من طليعة شيوخ الاستشراق فى إسبانيا ، ومن أكثرهم عكوفًا على ثقافتنا العربية الأندلسية ، تاريخًا وحضارة ، وفكرًا وأدبًا ، ومن أشدهم إخلاصًا لهذه الثقافة ، وإنصافًا لتاريخها وأهلها ، انتهت إليه رئاسة الدراسات الأندلسية بعد رحيل عواهلها الكبار : أسين بالاثيوس ، وانخل جونثالث بالنثيا ، وخوليان ريبيرا، وغريثيه غومث ، والأستاذ فرناندو دى لاجرانخا الشنتمرى . كما أحب أن ألقبه بلقبه الثانى Santa maria ، وهو تلقيب صادف أهله ، لأنه يذكر بالأعلم الشنتمرى فى تقصيه وإحاطته ، ورغبة فى ربط الخالف بالسالف . تخرج الراحل العزيز فى جامعة مدريد سنة ١٩٥٢ ، وابتعث إلى القاهرة كحال أستاذه غومث من قبله ، حيث تتلمذ على يد طه حسين وأحمد زكى باشا ، وحين عاد عمل أستاذًا للعربية وآدبها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد ، وعين عضواً فى مدرسة الدراسات العربية ، ورئيسًا لتحرير مجلة الأندلس ، بعد اعتزال غومث العمل الرسمى ، وواصلت المجلة رسالتها فى عهد جرانخا أحسن مايكون التواصل والأداء ، حتى احتجبت مؤخراً عن الظهور ، على الرغم من أنها من أرقى المجلات المتخصصة على المستوى العالمى .

وللمستشرقين الإسبان وغيرهم ولع بدراسات قديمة يقفون جهدهم عليها ، وربما لايعيرها العرب كبير اهتمام ، مثل الزراعة ، والمطبخ ، حيث كانت رسالة جرانخا للدكتوراة عن المطبخ المغربى فى العصر الوسيط ، وتعد مصدراً مهمًا لهذا الفرع من الدراسة ، حيث لاتقف لدى المصطلحات المطبخية ، بل تتعداها إلى دراسة الحياة الاجتماعية لأهل المغرب ، وحضارتهم فى أبسط صورها وأعمقها فى الوقت ذاته .

ووقف الأستاذ جرانخا حياته على الأندلس ، وكأنه الراهب فى الدير ، ويمتلك من أدوات البحث والنظر مايعز على نظرائه ، فهو عميق المعرفة بالعربية،

واسع الإدراك لتاريخ الأندلس ، ولديه إنصاف وموضوعية ، عصمته من شرك التسمم الفكرى الذى يلابس بعض بنى جلدته ، ، كما أن مكتبته الخاصة من أندر ما رأينا من مكتبات فى بيوت الأساتذة ، وله فهرسته الخاصة به ، كان بإيجاز يحيا حياة عالم متجرد للبحث ، يلابس حياة الناس بقدر ، ومن ثم كان نتاجه غزيراً ، وكون جيلاً من تلاميذه الإسبان والعرب ، يحملون له أطيب الود والامتنان .

أخرج الرجل تحقيقًا علميًا دقيقًا لكتاب تحفة المغترب ببلاد المغرب للقشتالى ، وألف مجموعة من الكتب فى صدارتها مقامات ورسائل أندلسية (ترجمناه إلى العربية) وهو أول كتاب عن المقامات فى الأندلس ، ووجد صداه لدى راشيل أريى المستشرقة الفرنسية ، ورجع فيه مؤلفه إلى مخطوطات لم تكن قد نشرت بعد ، وهو عارف مجيد بالمخطوطات الأندلسية ، وبخطوطها العسيرة ، وولج حقل الأدب المقارن ليثبت - بحق - تأثير العرب فى الأدب الإسبانى فى العصر الوسيط وحتى الحديث ، وترجمنا هذه الدراسات إلى العربية ، وعسير أن يستشهد مؤرخو الأدب الإسبانى بالتأثير العربى ، إلا فيما لايجدون له أصلاً ولو شاردًا فى آداب الأمم القديمة ، لكن جرانخا كان يرد بأمانة على هؤلاء الكتاب موضحًا الأثر العربى ، ويتقصاه فى مظانه المشرقية والأندلسية ، فى إحاطة مذهلة ، ولايعرف الشوق إلا من يكابده ، فربما يقرأ المرء نادرة فى الأدب العربى وينسى مصدرها حين يجدها تكاد تكون مترجمة بالحرف إلى الإسبانية ، غير أن جرانخا كان يهتدى إليها حيث فهرسته الدقيقة والمستوعبة ، وحافظته اللاقطة .

ومعلوم أن الاستشراق الإسبانى - فى مجمله - يكتب ومايتفق مع التيار السائد فى بلده ، مثل كل استشراق آخر ، ومن ثم تكون شهادة رجل مثل جرانخا للثقافة العربية لها وزنها العظيم .

ومعلوم كذلك أن المستشرقين الإسبان لايحظون بالشهرة حظوة النقاد والمبدعين الإسبان ، حيث يعيش أصحابنا فى منطقة الظل تقريبًا ، ومن يتجاوزها فإنما يتجاوزها بغير الاستشراق ، وعلى حساب العلم والتجرد له فى كثير من الأحيان، ولذا كنا نلحظ مرارة رجل مثل غومث ، مع أنه حقق شهرة عريضة فى العمل

والعلم ، لكنه كان يعتـقد أنه كان يمكنه المزيد منها لو لم يكن مستـشرقًا ، وكان صاحبنا جرانخا فيـه هذه المرارة المالحة التى تقطر أسى من الزيف الساطى والركاكة الشائعـة ، رغم أنه حقق أيضًا فى مجـاله مايعجز عنه أترابه ، وكـان الرجل يجد سلواه وعزاءه فى البـحث ، وفى الركون إلى صاحب يفضى إليـه بمكنونه ، وكان كاتب هذه السطور صـاحبه فى سنوات طويلة ، وكان يلمس صـدقه ، ونفاره من الكذب والتوسط .

ولا أنسى ترجماته للشعر العربى القديم ، وحـساسيته للكلمة ، وتواضعه الجم حين يعود إلى أهل هذا الشعر ، سائلاً ومناقشًا ولا أنسى أيضًا نطقه للإسبانية كأنه من أهل التجويد فيها .

كانت جلسـاتنا مع الأستـاذ الياس تيـريس - المستشـرق الكبيـر وحافظ تراث الفلامنكو الأصيل والأستاذ جرانخا زادًا ثريًّا من المعرفة والفن والود الرحب ، دون مأرب أو منفـعة ، غـير مآرب المثل العلـيا ، والأريحيـة النبيلة ، وقـد صوحت برحيلهما دوحة باسقة من العلم والفضل ، لاندرى متى يعود لها صحب وأهل .

شوقى فى الأندلس

الشاعر أدق أعصاب الأمة نسجًا، وأسرعها للمس تنبهًا، وهو يلتقط ــ أو يكاد ــ خفايا الضمائر والهواجس، وعينه عدسة لاقطة تنعكس فى صقالها ما يراه ببصيرته قبل بصره.

والرحلة إلى بلد كالأندلس، يمثل فيه التاريخ ــ تاريخنا حيًا، تتقراه بلمس، قبل أن تطالعه فى الطرس، شواهده حاضرة فى معارف الناس وسحنتهم، تتخلل وعيك أردت أو لم ترد، فى الطبيعة، والآثار، ولون بشرة الناس، وأعرافهم الاجتماعية والحياتية، مثل هذه الرحلة تهز أوتار الشاعر اليقظ.

واذا كانت الرحلة إلى الأندلس غير اختيارية، بل دفع إليها تجربة كتجربة المنفى، كان ذلك أدعى إلى أن تشحذ حس البليد الغافى، فما بالك بشاعر مصقول الإحساس والتجربة

مستطار إذا البواخر رنت أول الليل، أو عوت بعد جرس

لذا كان المتلقى طامحًا، وشديد الطموح فى أن يجد أثر هذه الرحلة الأندلسية، أو المنفى إلى أحشاء التاريخ قويًا وبارزًا.

فهل صنعت هذه التجربة صنيعها الذى نتوقعه من شاعر مثل أحمد شوقى ؟

نفى شوقى إلى الأندلس، بعد أن شبت الحرب العالمية الأولى، وكلفته السلطة العسكرية فى سنة ١٩١٥ أن يغادر مصر، لما كان بينه وبين الخديوى السابق عباس الثانى من صلات وثيقة، قابل الشاعر هذا النفى بارتياح، وصار الأصدقاء يخشون لقاءه، وقد سجل شوقى هذا المعنى فى قوله :

شكرت الفلك يوم حويت رحلى فيا لمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحتنى من كل أنف كأنف الميت فى النزع انتصابا
ومنظر كل خوان يرانى بوجه كالبغى رمى النقابا

اتصل شوقى بالأندلس منذ أن ركب الباخرة الإسبانية من السويس واصطحب معه أسرته المكونة من عشرة أشخاص، وهو عدد ضخم بالتأكيد عوقه من الاتصال الحميم بالإسبان، إذ نقل مصر معه، وظهر تأثير هذا فى شعره وحياته.

كان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران، وإسبانيا تحب مصارعتها حبًا جمًا، ولعلها ورثت هذه الهواية القاسية من أيام العرب فى غرناطة بنى نصر، وهى رواية لا تجد أدلة تاريخية تؤازرها، لكن عاصفة هوجاء هبت فما كان من قائد السفينة إلا أن ألقى جميع الثيران، رغم توسلات شوقى، كانت الثيران تحاول العوم، فإذا كلت أسلمت نفسها للقضاء، وهى تصيح صياحًا مؤلمًا.. منظر فظيع، يتكرر نظيره كل يوم فى حلبات المصارعة والإسبان فى غاية من الحماسة والابتهاج، وأذكر أن أستاذنا أبا فهر محمود محمد شاكر ــ وهو فى رحلته إلى الأندلس ــ لم يقبل أن يرى هذه المصارعة، وشاطره كاتب هذه السطور، فما طاوعته نفسه أن يذهب إلى الحلبة، ولا أن يشاهد مصارعة كاملة فى الشاشة الصغيرة !!

وصل شوقى إلى برشلونة، وهى من أجمل المدن الإسبانية وكانت أجمل من مدريد آنذاك، كالإسكندرية فى الأيام الخوالى، وأقام هو وقبيلته «أسرته ومربية تركية، وخادمان، وطاه» فى أحد الفنادق عدة أسابيع، واستطاع صديقى وأستاذى الدكتور الطاهر مكى أن يعرف هذا الفندق، وأن يذهب إليه، محاولاً أن يرى اسم شوقى فى سجلاته القديمة، ولم تجد محاولاته شيئًا.

لكن الشاعر ما عتم أن بحث عن منزل استأجره، نظرًا لتكاليف الإقامة الفندقية، وتأخر النقود أحيانا بسبب الحرب، وكان يصله كل شهر مبلغ ٢٠٠ جنيه مصرى، وهو مبلغ ضخم جدا بكل المقاييس، وكان المنزل الذى يسكنه كبيرًا، وبه حديقة، وكنيسة صغيرة، وهو على شرف من الأرض يطل على البحر المتوسط، أتاح لشوقى أن يرى منظر السفن رائحة غادية «كلما ثرن شاعهن بنقس».

عاش شوقى فى الأندلس يتنفس هواء مصريًا، أو عربيًا، لم يباشر الحياة الإسبانية إلا من الخارج، وأغلب صحبه هنالك مصريون، أو أجانب، حاول تعلم الإسبانية، لكن ظلت معرفته بها سطحية، ونطقه لها مضحكًا حسب ما يرويه ابنه حسين، وبرشلونه ليس فيها شىء من آثار العهد الإسلامى، لأن العرب لم يطل

مكثهم فيها، حاشا وقائع كان يقوم بها المنصور ابن عامر، لكن شوقى رأى فيها من المناظر الساحرة ما ينطق غير اللسن، ومازالت برشلونه، ومنطقة قطلوينه بوجه عام من أجمل بلاد اللَّه : البحر، والمطر، والبرد، والخضرة الدائمة والجبال الباذخة، وقد اختارها شوقى مقرًا للمنفى، وحسب رجل منفى أن يختار منفاه، أى تدليل هذا !!

لم ينغص على شوقى حياته الإسبانية إلا فراقه لأمه المريضة، وكانت فى حلوان:

كنز بحلوان عند اللَّه نطلبه ... خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب عزيز عنه غيبتنا ... لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر أوله شجنا ... لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

عقدت الهدنة فى سنة ١٩١٨، ولم يسمح للشاعر بالعودة إلى مصر إلا فى أواخر ١٩١٩. واستطاع شوقى أن يتجول فى إسبانيا كما يشاء بعد انتظام الموارد المالية فزار جزر البليار، ومدريد والأسكوريال، وزار مدن الأندلس فى الجنوب، وأهمها قرطبة وغرناطه وأشبيليه، وكانت له وقفات فنية وتاريخية فى هذه المدن بصورة خاصة، وإن كانت دقيقة وفقة برانية لا جوانية.

يقول شوقى عن رحلته إلى فرنسا لطلب العلم «ثم وصلت إلى باريس، وفيها وجدت نور السبيل من أول يوم».

هذه العبارة توضح إلى حد بعيد تعامل شوقى مع الرحلة ومع الحياة بصفة عامة؛ إذ كيف يستطيع أن يرى نور السبيل من أول يوم وطئت قدماه باريس، إلا إذا بهرته الأضواء الحسية التى تخطف النظر من أول لحظة.

وموقفه من باريس هو موقفه من الأندلس مع بعض الفوارق اليسيرة، لأنه ذهب إلى الأندلس وفى جعبته كثير من ثقافته ومعارفه عن الأندلس وشعره، إنه شاعر ناضج الشاعرية، ممتلىء النفس بابن زيدون، والبحترى، وغيرهما، فلا عجب إذا وجد أمامه «نمطًا جاهزًا» لينسج على منواله، وليعيش فى التاريخ أكثر مما يعيش فى الواقع.

ولعل المسئول عن هذه الرؤية هو الترف المصقول الذى عاشه شوقى فى مصر وفى المنفى، وللنفى مرارة مالحة تجد طعمها فى شعر الشعراء المنفيين الملتاعين، أما نفى شوقى فكان رحلة أقصته فترة عن جوه، وعن معارفه، وعن المعجبين به من رواد المجامع وأحلاس الزحام، لم تكن لنفيه تلك اللوعة الحارقة التى يجدها المرء مع شاعر إسبانى كبير، كان يملأ الدنيا أيام وجود شوقى فى الأندلس هو ميجيل دى أونامونو، الذى نفته السلطات الإسبانية لموقفه الحر البطولى، وتجد ثمرات هذا النفى فى دواوين كاملة تقيد هذه التجربة يومًا يوما، وقد هرب إلى باريس من منفاه لكن هذا الهرب قد أوهن جلده بعد الستين، سأله بلاسكو إبانييت الكاتب البلنسى المشهور : ما الذى يمكن أن يشتاق إليه المرء وهو فى باريس ؟ فأجابه أونامونو مهتاجًا طين الوطن !! لكن هذا المنفى، وتلك العذابات التى تركت أخاديد فى نفسه لم تجعله يكل أو يستسلم، بل ظل محاربًا فى ضراوة إلى آخر لحظات حياته، يثير القلق، ويهز راكد النفوس بهراوته الغليظة، وكذلك الشاعر رفاييل ألبرتى، وميجيل إناندث لهما تجربة عميقة فى المنفى وفى السجن.

لكن هؤلاء الشعراء من معدن آخر غير معدن شوقى، ومن الغبن للشاعر المصرى أن نطالبه بأن يكون على غير ما أشرج عليه من الوداعه المطمئنة، والترف المصقول، إن هذا الطراز من الشعراء الإسبان قريب الشبه بطراز العقاد وطه حسين وإخوان هذا الطراز المناجز المتحدى.

كتب شوقى شعرًا عن الأندلس ككل شعره معارضًا سينية البحترى، ومتتبعا خطاه وإن كان البحترى ــ وهو عربى ــ وقف على إيون كسرى، وشوقى ــ وهو العربى المسلم ــ وقف على أطلال الأندلس العربية المسلمة، ومع هذا كان شوقى متعثرًا بجانب البحترى، حتى فى المعانى التى حاول أن يجىء بمثلها.

وعلى الجمعة الجلالة، والنا صر نور الخميس تحت الدرفس

ويقول البحترى فى نفس المعنى :

والمنايا مواثل ، وأنو شروان يزجى الصفوف تحت الدرفس

ومعنى البحتـرى يتمشى مع سياقه بخـلاف شوقى، وعارض نونية ابن زيدون، وهو شاعر قريب الشبه بشوقى فى شخصـه، وفى فصاحته، ولذلك كان قريبًا منه فى المعنى والصياغة.

وعارض موشحة، ابن سهل الإسرائيلى، وهى معـارضة من شعراء كثيرين قبل شوقى، أهمهم ابن الخطيب، يقول شوقى :

من لنضـــــو يتنزى ألمـــا برح الشوق به فى الغلس

وكتب أرجوزته المطولة «دول العرب وعظماء الإسلام»، وفيها استعراض طويل للتاريخ العربى، وتاريخ الأندلس الـعربية، وإن كنت أرى فيها نظمًـا ليس فيه من الشـعر إلا الوزن والقـافـية، وهى من نوع النـظم التعليـمى الذى كـتب منه أبان عبدالحميد اللاحقى، وابن مالك، وآخرون كثيرون فى نظم العلوم.

رجع شوقى إلى مصر سنة ١٩١٩ بعد خمس سنوات تقـريبًا فى إسبانيا، كانت كفيلة أن يكون تأثيرها أكبر فى شاعر له مكانة شوقى، لكنه كان غير مفتوح نوافذ النفس لمثل هذا التـأثر الذى يمكن أن تمنحـه بلد مثل إسـبانيـا، وأن تمنحه تجـربة النفى، لكن المنفى كمـا قلنا آنفا لم يكن سوى رحلة متـرفة لشاعر الأميـر، وأمير الشعراء . !!

لم أقصـد بطبيعة الحـال أن أكتب تحليلاً مـسهبًـا عن شوقى فى الأندلس، بل قصدت أن أسـجل بعض انطباعات أوحتـها إلىَّ قراءة شوقى فى أندلـسياته، وأن أشرك قراء «القاهرة» الغراء معى فى مـوضوع له صلة بالأندلس «الفردوس المفقود» الذى أحمله بين جـوانحى، قبل أن أذهب إليـه دارسًا مدة سـبع سنوات ونصف، كنت أتذكـر فيـها شـوقى وشعـره، ولعل لهذا حـديثًا آخـر هو حديث الـدراسة والمقارنة.

الصاهل والشاحج وكلام فى الوزن

نمط من كلام أبى العلاء، غفل عنه جمهرة الناس، ولوفاءوا إليه ـخاصة الآن ـ لعصمهم من أضاليل الفوضى، التى تتغـشاهم فى قضايا الأوزان والعروض عامة. وكلام أبى العلاء أيـضًا ضرب من أدب الجدال والمناظرة وهو رجل قـوى العارضة أَلْحَنُ بحجتـه من كثيرين يطحنون قرونا، لأنه لا يذكـر هذا الضرب إلا وذكر أبو العلاء فى الصـدارة، يأخذ الصاهل بضبُع الشـاحج، يلبسه قمـيص الكتاف، وإن تمارى.

الصاهل هو الفـرس، والشاحج فى أضبط الأقوال هو البغل، يـدعى خثولة ـ وهى واردة صحيحة ـ لكنها مثل خثولة «تغلب» التى ارتأى الشاعر أن الزنج أكرم منها، يقص المعرى حوارًا فكريًا ولغويًا لا يحسنه غيـره، لسعة محصوله، وثقوب جنانه.

ونود هنا ـ فى وجـازة ـ أن نعـرض طرائف الشاحج فـى ادعائه القـدرة على النظم، حيث هو أسرع ألى الحفظ من المرسل، ويسـتظهر أبو العلاء أن بناء البيت لا يتحـقق إلا بالوزن، وأن التفـعيلة ـ مفـردة ـ لا تؤدى هذا الوزن، وإن أدت إيقاعًا، مـفرقًا تفرقة حـاسمة بين الإيقاع الذى يتحـقق بالأصوات على نسق ما، حتى من الطيور ـ الغراب والعصفـور ـ ومن الحيوان، وبين الوزن المتحقق بالقول الإنسانى فى النظم، على نمط بيت الشَّـعْر ـالسكنى ـ وأعمدته التـى تساوق أبنية الأوزان الشعرية

والحسن يظهر فى شـيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشَّعَر

ويرى المعرى على لسان الصـاهل موضحًا غرارة الشـاحج وغروره، أن صوت الأخيـر حمحـمة وشحيج وكـلاهما لا مسلك لـه فى الموزونات، لأن الكلمة إذا اجتمع فـيها ساكنان يتـوسطانها لم يمكن أن تنظم فى حشو البـيت العربى إلا فى

موضـوع واحد وهو شاذ مـرفوض، ويمضى أبو العـلاء ـ فى حسم ـ فيـقول : وكذلك أكثر أصوات الحيوان لا تعتدل، ولا يمكن دخولها فى المنظوم، لأنها تقطع الأجراس أو تمد فـيكون كالذى جمع بين سـاكنين أو أكثر، ألا ترى أن العصـفور أقصر أصواته إذا حكى حرف متحـرك بعده ساكن، والغراب إذا حكوا صوته قالوا غاقْ، وهو متحـرك بعده ساكنان أو ساكنان بين متحركين بكسـر القاف، كما يرى ـ وهو البصير فى أزمنة عمـياء ـ أن أعمدة البيوت مساوقة لأبيـات الشعر فأولها الطويل ـ تتتـابع إلى المنهوك والأرجاز، وربما نتفق معـه فى هذا أو تختلف، لكن الخلاف عسير لأن «الخيل» ربط بين البيوت والأبيات.

فيـما يتعلق بالأرجاز، جـعل لأصحابها جنة مـتواضعة حـيث قصروا فقـصر معهم، لكنهم كانوا ضابطين للمصطلح (الرجز والقريض)،وفى الرجز واشجة بينه وبين النثـر، ولذا صلح لنظم العلـوم، وهى قدرة وفـذاذة فى النظام العـروضى العربى، لا ينبغى التهوين من شأنها.

كما أن الحركة يعقبهـا سكون عند الشاحج والغراب والعصفور، تشى بأننا أمام وزن يكاد يكون غير إنسانى هو «الخبب» أو «الأميبا» الذى يتغشى زماننا فى الشعر الحر هو والرجز، ولا يكاد يخرج عنهمـا إلا فى الندرة، ولذا يستأهل هذا الضرب من الكلام اسمًا آخر غير الشعر.

وغير بعيـد، بل قريب جدًا كلام المعرى عن الإيقاع، ودعـوى الشاحج إحسانه له، عن كـلام أهل زمننا عن الكلام «المسكون بالإيقـاع» فيـما يسـمى ـ غلطًا ـ «قصيدة النثـر»، وهى دعوى مثل دعوى الشاحج ـ البغل ـ خـئولة فى الصاهلة، وإن كان المعـرى يجعل كلامـهم يخر على القواعـد، إذا كان هذا كلامًـا وكان له قواعد أصلاً !!

ولا يتردد أبو العـلاء من بسط المسائل، كـأنه كان يدرى أنه يخـاطب القرون، وخاصة أهل زماننا، فيذكر ساخرًا. ضاحكًا من تزاحم الأضداد : الشعر ـ النثر ـ الوزن ـ الإيقاع، الشعر العمودى !! الشعر الحر !! . حيث يرى أن للشعر شرائط تدركها الغريزة، فما وافقها فهو شعر، وما دابرها فكلام آبق عن الغريزة، فليبحث له عن اسم آخر، وهل أفاد الإبل والخيل أن تصحب الشعراء الفرسان، تهتز للوزن

ـ وهو إيقاع وزيادة، والزيادة حتم واجب معلومة من الفن الشعرى بالضرورة ـ ومع ذلك لم يعرف لها نظم، لأنها لم تخلق له، ترى هل تتخلى ألسنة النثر «المسكون بالإيقاع» أو بالعفاريت عن دعاواها العريضة ؟ وأن يعتصم أهل الشعر الحر بقواعد الوزن ـ لا التفعيلة ـ أو يبحثوا لهم عن اسم آخر؛ لأنهم الفاتحون باب الإيقاع المضروب، وسلام للشاحج من أهل زماننا المعطوب.

obeikandl.com